ولا بد في هذا من معرفة اهل كل قطر منهم احوال الاقطار الاسلامية الاخرى وهذا من علم تقويم البلدان والتاريخ . وما كان رد الشيخ على هذا الا ان قال انه لا يسلّم ان احداً يسمى فيما ذكر وانه هو لم يسمع بهذا الا في ذلك اليوم من ذلك المجاور!!! فكأنه لم يقرأ المؤيد ولا جريدة اخرى من الجرائد الاسلامية بل وغير الاسلامية قبل ذلك اليوم وكأن هذه المسئلة نظرية من النظريات الفكرية فيكفي في منعها قوله لا نسلم !! ويقول العقلاء انه لا وسيلة لتعميم هذه الحركة الاسلامية وتقويتها الا استمرار اوربا على الضغط على المسلمين لا سيما من الوجهة الدينية كمحاولة منع الحج وتقدم القول بأن بعض الاوربيين تنبهوا لهذا الامر ولا ندري ما ذا تكون عاقبته والله بكل شيء عليم

باب التربية والتعليم

﴿ باب الولد من كتاب أميل القرن التاسع عشر ﴾

(٨) من ارامس الى هيلانه في ١٥ يونيه سنة ١٨٥

لا سبب لانقطاع رسائلي عنك الا ترقبي فرصة تمكنني من ايصالها اليك وقد تلقيت مكاتيبك الاخيرة فاخذ ما ذكرته فيها عن « اميل » بمجامع لبي وبعث في دواعي الحنان والرحمة ولم أكن الى الآن اعرف شيئاً من ذلك في حياتي التي قضيتها في دراسة العلم ومناظرة الحكماء ومقارعة خطوب الدهر ولا غرو فاني ولدت مستعداً للأبوة واودّ لو ارى ولدي ولو بذلت في سبيل ذلك جميع ما املكه من الحطام واني مخبرك

بامر وان كان لا ينبغي مكاشفتك به وهو اني كنت عزمت عدة مرات على دعوتك الى الحضور اليّ به على ما بيننا من البحار الزاخرة والمسافات الشاسعة لعلمي بان ما فيك من الاقدام ورباطة الجاش تتضاءل دونه العوائق فلا يثنيك منها شيء عن تلبية دعوتي وكأني بك بعد هذا تسألني عن السبب الذي منعني من هذه الدعوة ولا يزال يمنعني منها فاقول انني قلت في نفسي ألا يكون من الأثرة ان اخلو بسجني ذاتين هما من احب الناس اليّ واخفض من حالها؛ فبأي حق استلب من هذا الطفل غرارته وغفلته وبواكير سروره وابتهاجه بالصاقه بي في محنتي التي خصني بها القدر؛ معاذ الله ان يكون مني ذلك فليشب وليترعرع حراً مغتبطاً في جناح والدته وكنفها.

ارائك محقة في اهتمامك بتعرّف اذواق «اميل» فان الوالدين في الجملة ينشئان اولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق على ان هذا الامر هو الذي كان ينبغي اجتنابه لأن الطفل اذا كان العوبة في ايدي الكبار المتوطين بسياسته وآلة تفعل بمشاربهم وافكارهم فانه يعتاد على موافقتهم في جميع الامور وهذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالاً صحيحاً في هذه الايام واننا اذا فتشنا عن العلة في وشك زوال ما فينا من انواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة فربما وجدناها في تربيتنا الاولى فانها مثار آفاتنا ونقائصنا النفسية.

ولنبحث ابتداء في ماهية الطبع فنقول: جرى اصطلاح العلماء باطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التي لا شك في انها ترجع باصلها الى الفطرة ولكنها على الدوام في تغير وتجدد لأسباب باطنية وظاهرية

فمن الاسباب الباطنية الارادة فان لها شيئاً من التأثير فى اهوائنا وشهواتنا ومحباتنا وكأنى بسائل يقول وهل هذه الارادة نفسها خلقية او مكتسبة فاجيبه انها تجمع الوصفين على ما اعتقد لأنها تكاد تظهر فى الطفل بمجرد ولادته وكلما شب وكبر قويت وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها . واما الاسباب الظاهرية فيكفي ان نمثل لها بالاسرة (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم فلو ان الفرنساوى المسيحي ولد فى الصين من اب نشأ على آداب كونفوشيوس (١) وتعاليمه لكان مغايراً لنا فى آرائه وسيرته .

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون فى الايام التالية لولادته كأنها محجوبة بادراك مشاعره وهو وان كان فى هذا الوقت يشعر بوجود ذاته بل ان هذا الشعور قد يكون احياناً هو الغالب عليه لكن ذلك قلما يبدو منه الا بحركات ارادية واعنى بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وانواع الصراخ التى تصدر عنه فان كل ما من شأنه ان يولد الماً او يحدث غضباً يكون فيه مدعاة الى ظهور هذه العلامات الخارجية وكثيراً ما تبدو منه حركات تخالها مختلة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر فى السبب الذى يحدثها ولو دققنا النظر لظهر لنا انها لا تكون منه الا طلباً لتحصيل لذة او تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون فالغلام الذى فى الثانية او الثالثة من عمره اذا طلب من مربيته شيئاً فمنعته اياه فاستلقى على الارض وانشأ يتمرغ وينتف شعر رأسه غيظاً تكون افعاله هذه

(١) كونفوشيوس هو احد مشاهير فلاسفة الآداب وعلماء الاخلاق فى الصين ولد فى سنة ٥٥١ ومات فى سنة ٤٧٩ قبل المسيح

معقولة فى حقه لانه يجد فيها بطريق الالهام شفاء لاعصابه من تهيجها فيتلاشى بها حنقه وتنكسر حدته وكذلك الشأن فى البكاء وغيره من الوسائل التى يزول بها عن اعضاء الجسم ما تجده من الالم بسبب توتر اعصابها .

على ان بعض هذه الحركات الغريزية يبقى ملازماً لنا حتى فى زمن الرجولية فان كثيراً من الناس من يضرب يده على جبهته اذا بلغه خبر سيئ ومنهم من يزغزغ انفه ومنهم من اذا جاءت الامور على غير مراده انبطح فوق فراشه ومن هذا تعلمين ان اعقل الرجال تصدر عنه غالباً وهو فى شدة انفعاله حركات لا تصدر الا عن مجنون وأنا لا اماري فى انه يفقد ما له من السلطان على نفسه فى هذه الحالة ولكني اقول ان فى هذه الافعال التى تصدر عن غير رويّة حكمة وان كنا لا نرى فيها الا جنوناً وحمقاً ذلك أن للنفس حالات تقتضي من الجسم اوضاعاً مخصوصة لعلة محجوب عنا علمها فمن الآلام النفسية ما يميل بنا الى الهجوع والسكون ومنها ما يدفعنا الى المشي والحركة فكيف السبيل الى اكتناه علة هذه البواعث الوقتية التى تدفع بعض اعضائنا الى التحرك عند حدوث شيء من الاضطرابات العقلية ؟ لا سبيل لنا الى ذلك سوى الاعتراف بأن الوصول الى معرفة هذا السر مما ليس فى مقدورنا وهو سر آخر جدير بالتفتيش عن سببه .

اول حرية تجب علينا للطفل هى ان يكون مختاراً فى حركاته ومقتضيات غرائزه وانى وان كنت كغيري من الناس لا احب ان ارى ولداً مسكيناً يحمر وجهه من الغضب ويبلغ به الانفعال الى درجة الجنون

ولكني ارى ان الاغضاء على بوادر ذلك الغضب اخف ضرراً من قمعها بالافراط في التسلط والقهر فانه لا شيء أردأ منية في النيظ من اكراه صاحبه على كظمه ولا اسوأ في الطباع ولا اخس في الخلائق مما يقمع دائماً ويرغم صاحبه على اخفائه . على ان الطفل سيتعلم في مستقبل ايامه ان من موجبات كرامته ان يملك نفسه عند الغضب ويكف سورة انفعالاته وان البكاء وحركات الضجر وخفة الفرح الخارج عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال قطعاً بل انه سيكون كآلاتنا البخارية تحرق ما يتولد من دخانها ولكننا يجب علينا ان ننتظر في بلوغه هذه الغاية ريثما ينمو عقله وتقوى ارادته .

أنا لست اعني بهذا ان يترك الطفل وما يعتوره من الانفعالات لعدم وجود ما من شأنه ان يزيلها كلا فان الاطباء قد اخترعوا لعلاج الجنون طريقة سموها التلهية النفسية يمكن اتخاذها في تربية الاطفال على ما ارى . على انها معروفة للمراضع من زمن لا تاريخ لمبدئه فقلما توجد واحدة منهن لا تعرف كيف يسكن غضب الطفل بصرف وجهه الى ما يلهيه ويشغل فكره ويمكن تعميم العمل بهذه الطريقة فان من الاطفال الحديثي السن جداً من يكون لهم شغف بالموسيقى من صغرهم ومنهم من يسهل اهواؤهم بمجرد النظر اليهم ومنهم من يجد في رؤية الحيوانات لذة مخصوصة ومنهم من يجد هذه اللذة في رؤية بعض الاشخاص فينبغي النظر في هذه الاذواق الخلقية لان جميعها من الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تربية الطبع فيهم .

انا لا اعتقد ان في الانسان خلائق شريرة محضاً ولكن يوجد من

خلائقه ما اذا غلبت عليه واسيء تصريفها فانها ربما تؤدي الى عواقب وخيمة فاذا سأل سائل هل يجب اعدامها اجبته ليس هذا من رأيي لأننا مع تسليم امكان الوصول الى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة وانما الذي ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب واذواق اخرى

اني اجد في نفسي ميلا الى اعتقاد انه لا يوجد طبع مهما كان فساده الا وقد انطوت فيه وسيلة للخلاص منه فلو ان القائمين على التربية حذقوا في التدرع بتلك الوسائل لمكافحة الطباع السيئة ومغالبة الاخلاق الرديئة في الوقت المناسب لذلك لحفظوا على المجتمع الانساني كثيراً من افراده الذين خسرهم خسراناً مؤبدا في السجون ومعاهد العقاب بالاشغال الشاقة ولست اضرب لك تأييداً لهذا القول الا مثلا واحداً اقتبسه من مذكراتي الخصوصية . حدثني لص انه انزبق ذات ليلة في ملهى موسيقي فجلس على احد مقاعده لا ليسمع المغنين بل ليرتقب فرصة تمكنه من سرقة ماعساه يجده في جيوب مجاوريه فان هذا الامر كان مهنة له ولكنه كان هو المسروق في تلك الليلة لانه كان ذا كلف بالموسيقى فلم يكن الا ان سمع اول رنة للكمنجة حتى احس بان عقله قد سلب ولما انشأت المغنية دويريه تغني صار الى حالة اسوأ من ذلك لفنائه عن نفسه فيما وجده من اللذة في ذلك اللحن المعروف بلحن الشيطان روبرت الذي في الفصل الخامس من تلك الرواية الغنائية ويخيل له ان لا يزال يسمع رجع صداه وجملة القول انه نسي الاشتغال بمهنته تلك الليلة فلما كان مساء اليوم الثاني عاد الى ذلك الملهى نفسه عاقدا نيته على ان لا يفتن ببنت البحر (١) ولكنه في هذه النية

(١) بنت البحر في اساطير الاقدمين هي ذات خيالية نصفها الاعلى نصف امرأة

لم يحسب حساب نزيله الذي بين جنبيه اعني ميله الفطري الى سماع الالحان فخرج في هذه الليلة ايضاً ممتلئ الاذنين صفر اليدين ومن اجل هذه الحمية اقسم ان لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلا انه ان فعل خسر ميله الى حرفته وهو قول دال على لحته واجترائه على القبائح

الاهواء الفاسدة في الانسان هي قوى مستبدة يبعثها نموها الفطري او المكتسب على ان تملك قياده فتتغلب على مافيه من ضروب الوجدان او الافكار فمن البديهي ان هذه الاهواء هي التي يجب ان تقاومها التربية من اول النشأة وهذه المقاومة يصح ان تكون على طريقتين اولاهما الرجوع الى انواع التلهية التي تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه الى غيرها كما سبق لي بيانه وثانيتهما جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التي تهيج من غرائزه ما يغلب على الظن ان في تحريكه وبالاً عليه فان في بعض الاشياء شيطانا رجيما كما ستعلمين من حادثة جرت في ايقوسيا اقص عليك خبرها لتفهمي ما اريده بالبواعث الخارجية التي تهيج الغرائز

ان امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت احد حوانيت الطرف فلما اتفقت ما ارادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن وكان في نحس طالعه كربع ساعة وابليه [1] اخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنك) قيمتها

والاسفل نصف سمكة كانت تعيق السائحين بلذيذ غنائها فتجذبهم الى شعاب صعبة حيث يهلكون والمراد بها هنا المغنية ففي الكلام استعارة

(١) وبليه هو كاتب قصص فرنساوي مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ اتفق له ان حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الاكل لم يكن معه ما يدفعه في حصته فحرج صدره وكأن الساعة كانت وقت الربع اذ ذاك فضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع

خمسة جنيهات انكليزية فلما تقدمها كاتب الحانوت لم يلبث ان عرف تزييفها فبهتت المرأة المسكينة واخرجت له اخرى لكنها لم تكن باحسن من الاولى فارتاب الرجل فى امرها وسلمها الى الشرطة ولم يكد التحقيق يأخذ مجراه حتى ظهر انها كانت خادمة فى بيت استوجبت احترام اهله اياها بما لها من حسن السيرة والصدق فى الخدمة وان الايقوسى الذى كانت فى خدمته كان قبض من احد معامليه قبل هذه الحادثة ببضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين واخطأ فى عدم تمزيقهما لنفاسة حظ هذه المحرومة وانها لاعتيادها على دخول حجرته فى كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراها مختلطتين باوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيراً اول الامر ولكن لما تكرر حضورها امام بصرها من يوم الى يوم ومن اسبوع الى آخر ومن شهر الى تاليه انشأت تمعن النظر فيهما وكأن هاتين الورقتين اللتين كانت تخالهما على بلاهما صحيحتين كانتا ترنوان اليها من طرف خفى وتخدعانها وتفاجئانها بنصائح غريبة فرفضت بادئ بدء فكرة اخذهما او بعدتها عن نفسها فراسخ لكنها لم يبق فى وسعها ان تكف النظر عنهما متى وجدت فى الغرفة التى هما فيها ثم انها فى ذات يوم لمستهما بيديها وبسطتهما واخذت تقلبهما ثم ردتهما فوراً الى اضبارة الاوراق البالية التى كانتا فيها كأن فيهما نارا كانت تحرق اصابعها ومازال بها هذا الاغراء حتى غلبها واوقعها فيما علمت

فاذا كان هذا تأثير الاشياء فى الكبار فما ظنك فى الصغار . نعم انهم ولله الحمد ليسوا كلهم لصوصاً وفوق ذلك فلما تعرض لانظارهم اوراق المصارف صحيحة او مزيفة ولكن توجد جملة من الخلائق الاخرى التى يهم المربين ان لا يقووها فيهم بنظر ما يوقظها من الاشياء فان رذائلنا

وفضائلنا ليست مجرد ممان ذهنية بل ان لها بالخارج ارتباطا قويا فهي تطابق فيه اموراً واحوالا شتى يكون بها تأثرها وعنها انفعالاتها. فالشراهة مثلا تحرك في الانسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها والغيرة تتيقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام ورؤية ما يعامل به من صنوف الملاطفة . فاول واجب على المربي هو البحث عن طبع الطفل ومعرفته والواجب الثاني هو ان يقطع عنه مواد الفتنة اعني البواعث المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لاغراء طبائعه السيئة واثارتها فلكثير من الاطفال الحق في ان يقولوا للقائمين عليهم ناشدناكم الله لاتدلونا بغرور .

ثم لا ينبغي ان يغرب عن ذهن المربي هذا الناموس الفطري وهو ان الطبائع والغرائز كما انها تقوى وتنمو بالممارسة هي تضمحل وتزول بعدمها فبه تعرف السر في قدرتنا على قمع بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على اذواقه الفطرية الاخرى وتمنعها من بلوغها غايتها فاكبر عمل للانسان في اصلاح نفسه منفرداً هو مكافحة ما يتغلب عليه من سيئ الاخلاق ورديء الطباع كما ان اجل سعي في اصلاح شأنه مجتمعاً هو ردع المعتدين وكسر نخوة الطغاة الظالمين .

كأني بقائل يقول هل يكفي في تربية الطفل ما ذكرته من جعله بمعزل عما يثير فيه غرائز الشر وايجاد التوازن والتساوي بين طبائعه فأجيبه لا شك في عدم كفاية ذلك فان طريقة التربية هذه سلبية والواجب علينا هو ان ننبه في الطفل بمجرد ان يشب ضروب المحبة وعواطف الخير وقبل الخوض في هذه المسائل يجب عليّ ان ابحث اولا فيما تتخذه الناس من الطرق عادة في تربية طبع الطفل كحمله على الامتثال المطلق وتخويفه

بالعقوبات وترغيبه فى المكافآت وكقوة القدوة والاعتقاد الدينى وقواعد علم الاخلاق وأسائل نفسي عما تساويه هذه الحيل المختلفة . اه

(لها بقية)

التعليم المفيد

كتبنا فى الجزء الماضى من المنار نبذة عنوانها (التعليم النافع) ذيلناها بنبذة اخرى فى بيان العمل العظيم الذى قام به احد العبيد السود فى اميركا نقلاً عما عربه المقتطف الاغر عن جرائد تلك البلاد . وقد جاء فى جزء آخر من المقتطف مقالة اخرى عنوانها (التعليم المفيد) ذكر فيها ملخصاً من مقالة لذلك العبد الكريم الفعال ومما جاء فيها قوله

« ان من المسائل الكبيرة عندنا تعليم ثمانية ملايين من السود سكان الولايات الجنوبية من اميركا وتهذيبهم وجعلهم مثل غيرهم من السكان . وقد اتسع نطاق هذه المسئلة الآن لانه صار علينا ان نعلّم ثمانمائة الف نفس من السود سكان كوبا وبورتوريكو فضلاً عما يجب من تعليم البيض سكان تينك الجزيرتين لأن كثيرين منهم فى حالة يرثى لها مثل السود الساكنين معهم . فاذا ابنت للقراء ما نجح من السعى فى تعليم السود فى هذه البلاد مدة الثلاثين سنة الاخيرة مع ما لقيناه فى ذلك من المصاعب الجمة اكون كأنى انبأتهم بما سينتج من السعى فى نشر التعليم والتهذيب فى كوبا وبورتوريكو وايضاحاً لذلك اقص عليهم القصة التالية « كان فى البلاد المعروفة ببلاد السود اى التى يزيد فيها السود على البيض رجل له املاك